الفصل الثانى

التصنيع والتصنع

١

اشتداد موجة التصنيع

رأينا — فى الفصل السابق — كتّاب الدواوين فى القرن الرابع للهجرة، وكل منهم يحاول أن يبلغ من تصنيعه وتجميله لأساليبه ما لم يبلغه كاتب آخر من كتاب الحكام والأمراء المجاورين له، إذ كان هؤلاء الأمراء والحكام يعتدون بالكتابة المصنّعة التى شاعت فى تلك العصور، وكان كل منهم يحاول أن يكون فى بلاطه ودواوينه أهم كاتب فى عصره حتى تشتهر دولته بتلك الطرف الزخرفية التى يخرجها هذا الكاتب. وما من ريب فى أن هذه الحال دفعت الكتّاب إلى أن يصلوا بنثرهم وتنميقه إلى مرتبة تكاد ترفع الحواجز بينه وبين الشعر، فهو نثر منظوم أو هو شعر منثور، وماذا يفصل بينه وبين الشعر؟ إنه يعتمد على الموسيقى: موسيقى السجع، كما يعتمد على زخرف البديع، وإنهم ليبالغون فى ذلك حتى تتحول رسائلهم إلى ما يشبه الوشى الخالص؛ فهى حلى وتنميق، وبديع وترصيع.

وإن الإنسان ليخيّل إليه كأنما تحولت صناعة النثر فى تلك العصور عن طبيعتها الأولى تحولا تامًّا، إذ أصبحت أشبه ما تكون بصناعة أدوات الترف والزينة فهى تحف تنمّق فى أروع صورة للتنميق، وكل كاتب يتوفر على إحداث هذه التحف توفراً يتيح له أن يشارك فى آياتها وبدائعها، وإنه ليُعنت نفسه فى سبيل ذلك إعناتاً بعيداً. ونحن — فى الواقع — لانكاد نتصور الآن ما كان يحدث فى تلك العصور فى أثناء صناعة هذه التحف والطرف لبعد العهد

بيننا وبينها ، ولأننا أصبحنا عجلين فى إحداث النماذج الفنية وما تحتوى عليه من زخارف دقيقة، بل لقد أصبحنا ننفر من التصنيع وما يُطْوَى فيه من سجع وبديع . ومن يقرأ فى آثار القرن الرابع يحس أن هذا المذهب من التصنيع لم يقف عند كتاب الدواوين ، بل لقد أخذ ينتشر بين غيرهم من كتاب الرسائل الشخصية ، وعلى رأسهم أبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى ، فقد تركا مجموعتين كبيرتين من الرسائل ، ذهبا فيهما هذا المذهب من السجع والبديع أو من التصنيع والترصيع ، ولم يكن الخوارزمى وبديع الزمان هما اللذين يذهبان هذا المذهب فقط ، بل كان يذهبه جميع الكتاب من حولهما . يقول الخوارزمى فى كتاب إلى أبى محمد العلوى : « قرأت الفصل المسجَّع فشغلنى الاقتباس منه ، عن الجواب عنه » . وهو يتقدم ذلك بوصف هذا الفصل فيقول : « ورد كتاب السيد . . فرتع الطرف منه بروضة مطورة ، وحُلَّة منثورة ، ولآلئ فرائد منثورة »[1] ، وهكذا كانت كتابة الأدباء فى هذا العصر ، فقد كانوا دائماً ينمقون كتبهم ويزخرفونها حتى تصبح كأنها الرياض المنمقة والحلل المنشَّرة .

والحق أن موجة التصنيع فى القرن الرابع كانت حادة حدة شديدة فلم يسلم منها أحد إلا فى القليل الأقل حتى كتَّاب التاريخ أنفسهم رأينا بينهم من يختار لنفسه هذا الأسلوب الجديد من التصنيع ، وبدأ هذه الحركة الصابى فى كتابه « التاجى فى أخبار بنى بويه » ثم تبعه المؤلفون فى التاريخ أمثال العتبى فى كتابه « اليمينى » نسبة إلى محمود بن سبكتكين الغزنوى إذ لقبه الخليفة « يمين الدولة وأمين الملة » . وهو كتاب فى تاريخ سبكتكين وابنه محمود ، وقد نال شهرة كبيرة فى عصره وبعد عصره، يقول السبكى : « كان أهل خوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريرى »[2] . وما من شك فى أن الصابى من جانب والعتبى من جانب آخر

---

(١) انظر رسائل أبى بكر الخوارزمى (طبع الجوائب) ص ٣٧ .

(٢) طبقات الشافعية ٤/١٣ .

كانا سبباً فى شيوع السجع والتصنيع فى الكتابة التاريخية عند العماد الأصبهانى ومن لفَّ لفَّه . وقد كان للثعالبي أيضاً أثره فى هذا الجانب فقد قدم للأدباء من كتابه وشعراء فى يتيمته بمقدمات مسجوعة ، اعتمد فيها على زخرف البديع .

على أننا نلاحظ أن هؤلاء الكتّاب جميعاً من أصحاب مذهب التصنيع والسجع والبديع أخذت تظهر على أسلات أقلامهم شيات مذهب آخر هو مذهب التصنع ، إذ نراهم يعمدون إلى تعقيد أساليبهم الزخرفية أو إلى اتخاذ فنون جديدة فى نثرهم لا تمت إلى التجميل والتصنيع بصلة ، إنما تمت إلى التحذلق والتكلف ، ويظهر أنه كان لكتّاب الرسائل الشخصية الأثر الأول فى هذا الجانب فإن موضوع رسائلهم عادة تهنئة أو عتاب أو رثاء أو اعتذار أو استمناح ، وهى موضوعات محدودة بطبيعتها ، فماذا يصنع الكاتب المصنّع الذى يريد أن يثبت براعته وتفوقه ؟ هل يقتصر على سطور معدودة ؟ إن الاقتصار على سطور قليلة لا يُعطى فرصة لبيان مهارة الكاتب وإذن فلا بد له من أن يطيل ، ولكن كيف يطيل ومعانيه محدودة؟ لم يجد سبيلا إلى ذلك إلا أن يمد معانيه بكل وسيلة ممكنة ، ولم ير مانعاً أثناء هذا الامتداد عن اللجوء إلى المبالغات والتهويلات والاعتداد بكثرة العبارات حتى ليخيل إلى الإنسان وهو يقرأ رسالة للخوارزمى أو للبديع أنه يقرأ فى أساليب كتبت لتُحفظ لا لتعبر عن معنى ، فالمعانى فقدت قيمتها ولم يعد لها أهمية ، إنما الأهمية كلها للألفاظ وما تطرّز به من وَشْى وحَلْى ، وحتى المقامات التى ابتكرها بديع الزمان تَسِمها هذه المياسم ، فهى لا تعبر عن قصص كما يفهم منها ، وإنما تعبر عن عبارات مرصوصة يمكن للأديب أن يستخدمها فى أعماله .

والحق أننا لا نمضى فى قراءة الخوارزمى وبديع الزمان وهما أهم المصنّعين بين كتّاب الرسائل الشخصية لتلك العصور حتى نحس بأن تأليف الرسائل أصبح لا يقصَد به إلى التعبير عن معان خاصة إنما يقصد به إلى التعبير عن غايات تعليمية ، فهى رسائل يقرؤها المؤدبون ليحفظوها ويحوكوا على مثالها لأنفسهم

آثاراً تشبهها ، وقد أعدّت هذه الحال إلى ظهور فكرة الأساليب المحفوظة التى تورث وتكرر وتردّد بين الكتّاب . على أننا لا نترك الخوارزمى وبديع الزمان إلى قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان وجرجان حتّى نجده يحقق ضروباً من التعقيد لزخرف التصنيع لم تكن معروفة من قبله ، وهى ضروب تجعله أقرب كتاب عصره إلى ذوق التصنع والمتصنعين . ونحن نقف عند هؤلاء الثلاثة : الخوارزمى وبديع الزمان وقابوس . لنفسر نمو مذهب التصنيع من جهة وتحول الكتاب قليلا قليلا إلى مذهب التصنع من جهة أخرى ، حتّى تنكشف لنا هذه الدورة فى تاريخ النثر العربى وما يتصل بها من فن وصناعة انكشافاً تاما .

٢

أبو بكر الخوارزمى وتصنعه

كان أبو بكر كاتباً كبيراً كما كان شاعراً كبيراً أيضاً ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ المعروف[١] ، وأصله من طبرستان ، ومولده ومنشؤه خوارزم[٢] ، وإليها ينسب ، وقد « فارقها فى ريعان عمره وحداثة سنه ، وهو قوى المعرفة ، قويم الأدب ، نافذ القريحة ، حسن الشعر ، ولم يزل يتقلب فى البلاد ، ويدخل العراق والشام ، ويأخذ عن العلماء ، ويقتبس من الشعراء ، ويستفيد من الفضلاء ، حتّى تخرج وخرج فَرْدَ الدهر فى الأدب والشعر ، ولقّى سيف الدولة وخدَمه ، واستفاد من يُمْن حضرته ، ومضى على غُلَوائه فى الاضطراب والاغتراب ، وشرق بعد أن غرب ، وورد بخارى . . ووافى نيسابور . . ثم قصد سجستان . . ثم إنه عاود نيسابور ، وأقام بها إلى أن وفق التوفيق كله بقصد حضرة الصاحب بن عباد بأصبهان ولقائه بمدحه ، فأنجحت سَفْرته ، وربحت تجارته ، وسعد جَدّه بخدمته ، ومداخلته ، والحصول فى جملة

---

(١) وفيات الأعيان ١/٥٢٢ .
(٢) اليتيمة للثعالبى (طبع الصاوى) ٤/١٩٢ .

ندمائه المختصين به ، فلم يخل من طَلٍّ إحسانه ووابله، وغامر إنعامه ونائله، وتزوَّد من كِتابه إلى حضرة عضد الدولة بشيراز ما كان سبباً لارتياشه ويساره ، فإنه وجد فيها قبولا حسناً ، واستفاد منها مالا كثيراً . ولما انقلب عنها بالغنيمة الباردة إلى نيسابور استوطنها واقتنى بها ضياعاً وعقاراً ، ودَرَّتْ عليه أخلاف الدنيا من جميع الجهات ، وحين عاود شيراز ورد منها عَلَلاً بعد نَهَل ، فأجْرِى له عند انصرافه رَسْمٌ يصل إليه فى كل سنة بنيسابور مع المال الذى كان يحمل من فارس إلى خراسان ، ولم يزل بحسن حال . . يقيم للأدب سوقاً ، ويعيده غضًّا وريقاً ، ويدرس ويملى ، ويشعر ويروى ، ويقسم أيامه بين مجالس الدرس ومجالس الأنس . وكان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً ويغضّ من سلطان خراسان ، ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه »[1] . وتعصُّب الخوارزمى للبويهيين طبيعى لما ذكره الثعالبي من تكريمهم له وبذلهم ، على أن ذلك كان سبباً فى أخذه وحبسه واستخراج بعض المال منه إلا أنه احتال يوماً وهرب إلى حضرة الصاحب متنكراً ، واستمر عنده حتى تولى الوزارة فى خراسان صديقه أبو الحسن المزنى « فاستدعاه وأكرم مورده ومصدره ، وكتب إلى نيسابور فى رد ما أخذ منه عليه ، ففُعِل، وزادت حالته ، وثبتت قدمه ، ونظر إليه ولاة الأمر بنيسابور بعين الحشمة والاحتشام، والإكرام والإعظام ، فارتفع مقداره ، وطاب عيشه »[2] . ويظهر أنه كانت بنيسابور جماعة مستوحشة منه جداً ، فاستغلوا الفرصة حين وفد بديع الزمان على بلدتهم فى أخريات أيام الخوارزمى ، وعقدوا مناظرات بينهما ، وأعانوا البديع عليه[3]. ولم يحل الحَوْل حتى توفِّى، وكانت وفاته سنة ٣٨٣هـ ، ومولده سنة ٣٢٣هـ[4]. ويبالغ بديع الزمان فى وصف هزيمته للخوارزمى حين دعى لمناظرته . على أنه ينبغى أن نتلقى هذه المبالغة بشىء من الاحتياط ، لأن البديع هو الذى رواها

---

(١) اليتيمة ٤/١٩٥ .
(٢) اليتيمة ٤/١٩٦ .
(٣) اليتيمة ٤/١٩٦ .
(٤) اليتيمة ٤/١٩٦ وانظر وفيات الأعيان ١/٥٢٣ .

فى رسائله من جهه[١] ، ولأن الخوارزمى كان له خصوم فى نيسابور وقفوا ضده فيها من جهة أخرى . ولعل صاحب اليتيمة كان دقيقاً فى حكمه حين قال فى ترجمة بديع الزمان : « ثم شجَر بينه وبين أبى بكر الخوارزمى ما كان سبباً لهبوب ريح الهمذانى وعلو أمره ، وقرب نُجْحه ، وبعد صيته ، إذ لم يكن فى الحسبان والحساب أن أحداً من الأدباء والكتاب والشعراء ينبرى لمباراته ، ويجترئ على مجاراته ، فلما تصدى الهمذانى لمساجلته ، وتعرض للتحكك به ، وجرت بينهما مكاتبات ومقامات ، ومناظرات ومناضلات ، وأفضى السِّنان إلى العنان ، وقَرْع النَّبْع بالنبع[٢] ، وغلَّبَ هذا قوم ، وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحاكمين ، والقرنين المتصاولين ، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الإقبال على أموره ، وأُدِرّ له أخلاف الرزق . وأجاب الخوارزمى داعى ربه ، فخلا الجو للهمذانى ، وتصرفت به أحوال جميلة »[٣] فصاحب اليتيمة يرى أن نجاح البديع فى هذه المناظرات لم يجئ من أنه انتصر على الخوارزمى وإنما جاء من أنه استطاع أن يثبت له ، وسرعان ما أتى الحادث المفاجئ فتوفى الخوارزمى وخلا الجو للبديع .

ومهما يكن فقد كان الخوارزمى من كبار الأدباء فى عصره . روى ابن خلكان أنه استأذن على الصاحب فى أرّجان وهو لا يعرفه ، فقال لحاجبه : قل لهذا المستأذن قد ألزمتُ نفسى أن لا يدخل علىّ أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك ، فقال له أبو بكر الخوارزمى : ارجع إليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب ، فأعلم الصاحب بما قال ، فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمى[٤] . والحق أن أبا بكر كان أستاذاً كبيراً فى

---

(١) انظر هذه المناظرات فى رسائل بديع الزمان (طبع بيروت سنة ١٩٢١) ص ٢٨ وما بعدها.

(٢) النبع : شجر للقسى والسهام .

(٣) اليتيمة ٤/٢٤١ .

(٤) وفيات الأعيان ١/٥٢٣ .

عصره ، ولعله من أجل ذلك أسند إليه منصب تخريج التلاميذ فى نيسابور [١] ، ويظهر أنه كان متشيعاً غالياً فى تشيعه ، ففى رسائله رسالة شيعية صَبَّ فيها جام غضبه على الخلفاء من الأمويين والعباسيين [٢] . وإن من يرجع إلى رسائله يجدها تستحوذ على خصائص مذهب التصنيع لعصره فى صورة بالغة من السجع والبديع ، وانظرْ إليه يكتب إلى أبى على البلعمى لما طال عَتْبه وكثرت رقاعه [٣] :

« الكريم — أيد الله تعالى الشيخ — إذا قدر ، غفر ، وإذا أوثق أطلق ، وإذا أسر أعتق ، ولقد هربت من الشيخ إليه ، وتسلحت بعفوه عليه ، وألقيت ربقة حياتى ومماتى بيديه ، فليذقنى حلاوة رضاه عنى ، كما أذاقنى مرارة انتقامه منى ، ولتلُحْ على حالى غُرّة عفوه ، كما لاحت عليها مواسم غضبه وسَطْوه ، وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال ، وأن العبد لئيم الظفر إذا نال استطال ، وليغتنم التجاوز عن عثرات الأحرار ، ولينتهز فرص الأقدار ، وليحمد الله تعالى الذى أقامه مقام من يُرْجَى ، ويخشى ، وركّب نصابه فى رتبة شاب الزمان ومجدها فتىّ ، وأخلق العالم وذكرها طرىّ ، فجعله فى الميلاد كريمها وسليلها ، وفى الرتبة قدوتها وجليلها ، وليعتقد أنه قد هابه من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر ، وأن من رد عليه عذره فقد خرج إلى الشجاعة بعد الجبن ، وأخرج ذنبه إلى محو اليقين من سترة الظن ، ووفق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب أوليائه ، وعصمه بما يزيد به فى جماجم أعدائه ، وليس بين الموالاة والمعاداة ، إلا لقية بشعة ، أو لفظة قذعة » .

وأنت ترى فى هذه الرسالة أن الخوارزمى يعتمد على السجع اعتماداً يشبه ما رأيناه سابقاً عند ابن العميد والصاحب ، فهو ينتخب لفظه كما ينتخب أسجاعه ، وهو يعنى بالسجع القصير حتى لا يطول الزمن على الأذن ، فتخرج من الجو

---

(١) فى رسائل الخوارزمى ما يدل على كثرة تلاميذه ، فهو يراسلهم ويوصى بهم الأمراء والرؤساء . انظر الرسائل (طبع الجوائب) ص ١٠ ، ١٢ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٧٥ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٨٠ .

(٢) رسائل الخوارزمى ص ١٣٠ .

(٣) رسائل الخوارزمى ص ٩٦ .

الموسيقى الذى يريده الكاتب ، وقد يأتى بالسجع الطويل ولكنه يحدث فيه من المعادلات الداخلية ما يعود به قصيراً ، كقوله : « وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال ، وأن العبد لئيم الظفر إذا نال استطال » ، فإن هاتين السجعتين طويلتان فى الظاهر ، ولكنك إذا تأملتهما وجدتهما تنحلان إلى أربع سجعات ، ففيهما سجعتان داخليتان ، وكان يلجأ إلى ذلك كثيراً فى رسائله . وهو لا يلجأ إلى السجع وحده كما نرى فى تلك الرسالة ، بل نراه يلجأ إلى ألوان البديع وخاصة لون التصوير ولون الطباق حتى يرصّع سجعه ترصيعاً ، وكان يعنى أيضاً بلون الجناس ، ولكنها عناية أقل من عنايته بالطباق ، ومن أمثلة جناسه قوله فى مطلع إحدى رسائله : « وَعْد الشيخ يُكتَبُ على الجَلْمد ، إذا كُتب وعد غيره على الجَمد ، ولكن صاحب الحاجة سيّئ النظر بالأيام ، مريض الثقة بالأنام »(١) ، وقوله فى أخرى : « ورد علىّ خبر وفاة فلان ، فدارت بى الأرض حيرة ، وأظلمت فى عينى الدنيا حسرة ، وملك الوله والوهل قلبى وساوسَ وفكرة ، وتذكرت ما كان يجمعنى وأباه من سُكْرى الشباب والشراب »(٢) . وعلى هذا النحو كان الخوارزمى يعتمد فى تصنيعه على ما عُرف عند ابن العميد وتلامذته من سجع وبديع ، وإنه ليحاول أن يبلغ من ذلك أوسع درجة ممكنة من الحلية ، فهو يقصر سجعه ، وهو يخلع عليه ضروباً من الرشاقة بفضل ما يلجأ إليه من الصور والجناس والطباق ، وكل ذلك ليجلب أبدع ما يمكن من طُرف وتحف فى هذا الباب ، وإن الإنسان ليحس عنده حقاً بأن التصنيع قد وصل إلى غايته من التجميل ، فكل عبارة كأنها زخرف مستقل بما تحمل من وشى البديع وزينته ، وإنه ليتطرف فى ذلك تطرفاً ينتهى به إلى ظهور بعض سمات التصنع فى كتابته .

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ١٢ . والجلمد : الصخر ، والجمد : الثلج .

(٢) نفس المصدر ص ١٥ .

٣

التصنع وتصنيع الخوارزمى

كانت صناعة الخوارزمى فى رسائله تقوم على التصنيع وما يطوى فيه من سجع وبديع ، على أن من يتأمل فى هذه الصناعة يحس تسرب ضروب من التصنع إليها ، إذ كان الخوارزمى يعمد إلى ضروب من التهويلات والمبالغات ، وكأنما قِصَر الموضوعات التى كان يعالجها هو الذى أداه إلى هذه الصورة من التعبير ، وانظر إليه يكتب إلى أحد تلاميذه فيصف أيامه الماضية معه على هذا النحو [1] :

«كانت أرق من حاشية البُرْد، ومن طلوع السعد، وأحلى من إنجاز الوعد، وأعذب من القَنْد [2] ، بل من النقد، وأعبق من الورد، وما أردت إلا ورد الخدّ، بل من المسك والنَّدّ، وأطيب من القرب بعد البعد، ومن الوصل فى إثر الصدّ، بل كانت أرق من نسيم الزهَر، فى السَّحَر، ومن قضاء الوَطر، على الخطر، بل كانت أقصر من ليل السكارى ، أو نهار الحيارى » .

وأنت ترى أساس هذه التعبيرات كلها أنه يهوِّل ويبالغ فى وصف الأيام الماضية وما كان من حسنها وجمالها ، ولكن انظرْ كيف أطال فى نعته لها، وهى إطالة مقصودة إذ كان يقصد بها إلى بيان مهارته فى صوغ هذه الأسجاع التى تتقابل تقابلاً بديعاً على هذا النحو ، فإذا هى تتألف من أسجاع دالية أول الأمر حتى إذا أثبت تفوقه فى استخدام الدال وأسجاعها انتقل إلى الراء يحوك منها ما يريد من سجع ، وهو يوشى هذا السجع كله بالجناس والطباق والتصوير. ونحن نتساءل : ما هذه الأوصاف كلها التى « يرصُّها الكاتب رصًّا» ؟ والحق أن هذا « الرصّ» وما يتبعه من تراكم العبارات أصبح أصلا من أصول صناعة

(١) رسائل الخوارزمى ص ١١ .

(٢) القند : عسل قصب السكر .

الخوارزمى فى رسائله ، وإنا لنلمح فيه جانباً من جوانب التصنع ، وهل التصنع إلا الخروج عن الطرق الطبيعية فى التعبير الفنى ، إما بمثل هذا التراكم للعبارات ، أو بما قد يحدث من تعقيد فى زخرف السجع والبديع ، أو بما قد ينجم من اجتلاب ألفاظ العلوم ومصطلحاتها ، ومهما يكن فنحن نقع عند الخوارزمى على هذه الحال الجديدة التى أخذت تظهر فى مذهب التصنيع ، ونقصد هذه العبارات المرصوفة التى يتراكم بعضها على بعض ، والتى يحس الإنسان أنها لا تؤدى شيئاً سوى أسجاع وضروب من بديع ، واستمعْ إليه يصف قصيدة بعث له بها أحد تلاميذه [1] :

« وصلت القصيدة الغراء ، الزهراء ، فكانت أرقّ من الماء ، بل من الهواء ، وألذ من الصَّهْباء ، وأسرّ من اللقاء بين الأحبّاء ، ومن هجوم السَّراء ، غِبّ الضرّاء ، وأعذب من مغازلة النساء ، ومن مجالسة الندماء ، ومن مساعدة القضاء ، ومن معاقرة الشراب على الغناء ، ومن استماع فوائد الحكماء ، وخطب البلغاء ، وقلائد الشعراء ، ومن أخْذ جوائز الأمراء ، وتحصيل مراتب الخلفاء ، فكانت معانيها أبدع من الوفاء ، وأعز من السخاء ، وأغرب من النصفة فى الأصدقاء ، ومن الأمانة فى الشركاء ، بل أغرب من المُغْرب العنقاء ، وألفاظها أحسن من البدر فى الظلماء ، وأطيب من وصال الحسناء ، ومن الشماتة بالأعداء » .

أرأيت إلى هذه المبالغات والتهويلات و « رصّ » العبارات ؟ إنه الأسلوب الجديد ، أسلوب الرسائل الشخصية عند الأستاذ الأديب أبى بكر الخوارزمى الذى اشتهر بالبلاغة والبيان فى عصره ، لما كان يسوق فى رسائله من مثل هذه العبارات المرصوصة التى تدل على التطرف والمبالغة ، كما تدل على ضرب من الإفراط فى استخدام الجمل والتراكيب المسجوعة . وأكبر الظن أنه كان يعمد إلى ذلك عمداً حتى يجمع لتلاميذه فى رسائله جميع صور التعبير التى يمكن أن يستخدموها فى فكرة من الأفكار ، وكأنه كان يحس أن مهمته ليست هى

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٣٧ .

أن يعبر عن معان ، بل هى أن يعبر عن أساليب يحفظها الطلاب . وما من شك فى أن هذا كان أحد الأسباب فى شيوع العبارات المحفوظة فى اللغة العربية ، إذ نجدها تميل منذ الخوارزمى إلى الاحتفاظ بصيغ خاصة من التعبيرات ، يرددها الأدباء فى كتاباتهم .

وليس هذا كل ما يلاحَظ على تصنيع الخوارزمى وتطرفه فيه ، بل إننا نلاحظ عليه أشياء أخرى لعل فى مقدمتها أنه يكثر من الإشارات التاريخية[١] ، كما يكثر من ذكر الشعر ، وهى حال أوسع من أن ندل عليها ، وأيضاً فإنه كان يكثر من نثر الشعر وإدماجه فى كتابته ، بل إنه ليعترف بأنه يكثر من إغارته على الكتّاب الذين سبقوه إذ يقول صراحة : « مازلت أسرق من هذا كلمة ، وأنظر من ذاك فقره ، وأستعير من هناك نادرة وثيقة ، أغصب الأحياء على بيانهم ، وأنبش المرقى من أكفانهم »[٢] . ونراه فى مقدمة إحدى رسائله يقول : « كتابى وأنا فى سلامة إلا من الحرّ الذى يذيب دماغ الضّبّ ، ويشبه قلب الصّبّ ، وهذا سرقته من رسائل الوزير الجليل ابن عباد ، وليس بأول غارة الكردى على الحاجى ، ولا بأول أخذ الطرّار ، مال التجار »[٣] . ولعل هذه السرقة وأمثالها هى التى جعلته يصف أسلوبه بأنه « سجع ملزق وكلام ملفق »[٤] . والحق أننا نجد عند الخوارزمى ميلا واضحاً إلى الحذلقة فى التعبير ؛ وإنها لحذلقة تؤديه أحياناً إلى أن يتصنع لبعض ألفاظ من النجو ، إذ يقول لصديق له : « وكيف صرتُ المستثنى ، وقعدتُ على طريق إلا »[٥] . وقد نحس هذه الحذلقة نفسها فى وسائل التصنيع كقوله فى إحدى رسائله : « لقد أراحنى الشيخ ببِرّه ، لا بل أتعبنى بشكره ، وفزّعنى بصادق قيامه لا بل شغلنى بتعديد إحسانه وإنعامه ، وخفّف ظهرى من ثقل المحن ، لا بل أثقله بأعباء المِنَن ، وأحيانى بتحقيق الرجاء ، لا بل أماتنى بفرط الحياء »[٦] . وعلى

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٣٥ ، ٩٧ .
(٢) رسائل الخوارزمى ص ٣٦ .
(٣) نفس المصدر ص ٧٩ .
(٤) نفس المصدر ص ٣٤ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٦ .
(٦) نفس المصدر ص ١٠٦ .

هذا النحو نحس دائماً بضروب من التصنع تتسرب إلى صناعة الخوارزمى ، وهى صناعة كانت تقوم على التصنيع ، ولكنها أخذت تظهر فيها بعض شيات التصنع وسماته ، مما يدل على أننا وصلنا من التصنيع إلى هذه المنطقة التى يختلط فيها المذهب بمقدمات مذهب آخر ، وهى مقدمات ما تزال تتسع حتى ينفذ منها الأدباء إلى إحداث المذهب الجديد . ونحن لا نصل إلى أواخر القرن الرابع حتى نجد الرغبات تتكامل للخروج من مذهب التصنيع القديم إلى مذهب جديد من التصنع ، وهو مذهب كان يقوم على التعقيد فى الأساليب والأداء . وما من ريب فى أن الخوارزمى يعبِّر عن شىء من هذه الرغبات مع أن فنه عامة يندمج فى مذهب التصنيع .

٤

بديع الزمان وتصنيعه

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين ويعرف باسم بديع الزمان ، أصله من همذان وإليها ينسب ، وقد تركها عام ٣٨٠ هـ وعمره نحو اثنتين وعشرين سنة ، ويظهر أنه لم يكن معجباً بها ، فقد جاء فى إحدى رسائله لأستاذه أحمد بن فارس اللغوى المعروف الذى «أخذ عنه جميع ما عنده واستنفذ علمه»[١] قوله[٢] :

لا تلمنى على ركاكة عقلى   إن تيقَّنتَ أننى همَذانى

وقد روى له ابن خلكان — مع شىء من الشك — بيتين يذم فيهما همذان وأهلها ذمًّا قبيحاً على هذا النحو[٣] :

همذانُ لى بلدٌ أقول بفضله   لكنه من أقبح البلدانِ
صبيانهُ فى القبح مثلُ شيوخه   وشيوخُه فى العقل كالصبيانِ

---

(١) اليتيمة ٤/٢٤١ .
(٢) رسائل بديع الزمان (طبع بيروت سنة ١٩٢١) ص ٤١٩ .
(٣) وفيات الأعيان ١/٣٩ .

وقد يكون فى هذا الشعر — إذا صحت نسبته إليه — ما يعلل لمفارقته بلده فى مقتبل حياته ، وقد تركها إلى حضرة الصاحب بن عباد زعيم أدباء عصره حينئذ فتزود من ثماره وحسن آثاره [١] . ونراه يترك الصاحب إلى جرجان إذ « أقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيش فى أكنافهم والاقتباس من أنوارهم . ثم قصد نيسابور فوافاها فى سنة ٣٨٢ هـ ونشر بها بَزَّه ، وأظهر طَرْزه وأملى أربعمائة مقامة! نحلها أبا الفتح الإسكندرى فى الكُدْية وغيرها » [٢] . على أنه لا يستمر طويلا فى نيسابور إذ نراه يرحل عنها متجولا فى خراسان وسجستان وغزنة وما حواليها . ويقول الثعالبى : إنه « لم يبق من بلدة فى هذه الأنحاء إلا دخلها وجنى وجبى ثمرتها ، واستفاد خيرها وميرتها ، ولا ملك ولا أمير لا وزير ولا رئيس إلا استمطر بنَوْئه ، وسَرى فى ضوئه ، ففاز برغائب النعم ، وحصل على غرائب القِسَم ، وألقى عصاه بهراة واتخذها دار قراره ، ومجمع أسبابه ، واقتنى ضياعاً فاخرة ، وعاش عيشة راضية ، وحين بلغ أشده وأربى على الأربعين ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه سنة ٣٩٨ هـ » [٣] .

واشتهر بديع الزمان بحافظة قوية قوة شديدة ، يقول صاحب اليتيمة : « إنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب ، فمنها أنه كان يُنشد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ، ولا يخل بمعنى ، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهذُّها عن ظهر قلبه هذّاً ، ويسردها سرداً » [٤] . وكما اشتهر بديع الزمان بحافظته اشتهر بسرعة ارتجاله [٥] وكان يعرف الفارسية ويترجم بعض أشعارها إلى العربية ، ويقال إن الصاحب بن عباد اختبر مهارته فى هذا الجانب [٦] ويقول صاحب اليتيمة :

---

(١) اليتيمة ٤/٢٤١ .
(٢) اليتيمة ٤/٢٤١ .
(٣) اليتيمة ٤/٢٤٢ .
(٤) اليتيمة ٤/٢٤٠ .
(٥) اليتيمة ٤/٢٤٠ .
(٦) Browne, Lit. Hist. of Persia. vol. II, p. 112.

إنه «كان يترجم ما يُقْتَرَحُ عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع»[١] .

وليس هناك كاتب فى القرن الرابع نال من التمجيد والثناء ما ناله بديع الزمان . وحتى اسمه لا يعرفه الناس وإنما يعرفونه بلقبه الذى أطلقه عليه معاصروه ، وإنه ليفصح عن مدى إعجابهم به ، يقول الثعالبى : « هو معجزة همذان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارد ، ونرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يُلْقِ نظيره فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يُدْرِك قرينه فى طُرَف النثر ومُلَحه وغرره . . ولم يُرَ ولم يُرْوَ أن أحداً بلغ مبلغه من لبِّ الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره »[٢] ويقول الحصرى وقد ذكر اسمه (البديع) : « هذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، كلامه غضّ الأكاسر ، أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفاً ، والهوى يعشقه ظرفاً »[٣] وكان الحصرى يتعصب له على الخوارزمى ، وبلغ من تعصبه أنه لم يرو للخوارزمى شيئاً فى كتابه بينما أكثر من روايته عن البديع ، إذ كان يعجب به وبمقدرته على التجويد والتحبير إعجاباً شديداً . وقد ترك بديع الزمان مجموعة كبيرة من الرسائل نَيِّفت على مائتين وثلاثين ، وأكثرها فى علاقاته الشخصية وبعضها فى مسائل أدبية وقد تحدث فى الرسالة رقم ١٦٧ عن انتشار التشيع ومن يتصفح هذه الرسائل يحسُّ فيها أثر الاحتفال والجهد الشديد ، واستمعْ إليه فى هذه الرسالة القصيرة[٤] :

« يعز علىّ — أطال الله بقاء الرئيس — أن ينوب فى خدمته قلمى ، عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى ، دون وصولى ، ويرِد مَشْرَعَةَ الأنس به كتابى ، قبل ركابى ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمَّة :

وعلىّ أن اسعى وليـ ـس علىّ إدراك النجاحْ

---

(١) اليتيمة ٤/٢٤١ .
(٢) اليتيمة ٤/٢٤٠ .
(٣) زهر الآداب للحصرى ١/٣٠٧ .
(٤) رسائل بديع الزمان ص ١٠٣ .

وقد حضرت داره ، وقبّلت جداره ، وما بى حُبُّ الجدران ، ولكن شغفاً بالقُطّان ، ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقاً إلى السُّكان » .

وأكبر الظن أنه استقرت فى نفسك الآن صورة من تصنيع البديع فهو يعتمد فى تصنيعه على السجع القصير ، وإنه ليبعد فى ذلك ، فإذا سجعاته لا تتألف من عبارات ، وإنما تتألف من ألفاظ وكلمات ، فـ « قلمى » تتبعها « عن قدمى » و « رسولى » يليها « دون وصولى » و « كتابى » تجىء فى إثرها « قبل ركابى » . وما من شك فى أنه بلغ من ذلك مبلغاً لم يصل إليه ابن العميد ولا من تبعوه فى مذهب التصنيع ، وهو يضيف إلى ذلك كل ما يمكنه من ترصيع بالبديع ، وكان يعتمد — فى أغلب الأمر — على الجناس ، بينما كان يعتمد الخوارزمى فى الأكثر على الطباق ، وهما يشتركان بعد ذلك فى العناية بالتصوير . على أن البديع كان يهتم بلون لم يأبه له الخوارزمى وهو « مراعاة النظير » بين ألفاظه وكلماته ، وكان يبالغ فى ذلك حتى يضم اللفق إلى لفقه ، والشكل إلى شكله ، كقوله فى تهنئة بمولود : « حبذا الأصل وفرعه ، وبورك الغيث وصَوْبه ، وأينع الروض ونَوْره ، وحبذا سماء أطلعت فَرْقداً وغابة أبرزت أسداً »[1] فإنه حين ذكر الأصل وفرعه استطرد إلى ذكر الغيث وصوبه والروض ونوره أو زهره ، والسماء وفرقدها والغابة وأسدها . ومن ذلك قوله فى إحدى رسائله : « وردتُ من ذلك السلطان حضرته التى هى كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج ، ومَشْعر الكرام ، لا مشعر الحرام ، ومُنَى الضيف ، لا مِنَى الخَيْف وقبلة الصِّلات ، لا قبلة الصَّلاة »[2] فإنه حين ذكر الكعبة والحجاج ذكر المشعر الحرام ومنى الخيف وقبلة الصلاة ، وكل ذلك ليجانس ويناظر بين ألفاظه وكلماته . على أن هناك ظاهرة تختص بها رسائل بديع الزمان ، ولا توجد فى رسائل الخوارزمى ، وهى ظاهرة القصص ، وهى أوسع من أن نمثل لها بأمثلة ، لأنها تنتشر فى جميع رسائله . ومهما يكن فقد كان بديع الزمان معجباً بمذهب التصنيع ، وكان يسعى دائماً إلى تطبيقه فى رسائله وكتاباته وإنه ليغالى فى هذا

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ٥١٥ .

(٢) رسائل بديع الزمان ص ١٥١ .

التطبيق فإذا هو يحاول أن يقصّر عبارات سجعه تقصيراً شديداً كما يحاول أن يفرط فى استخدام ألوان البديع إفراطاً بعيداً .

٥

التصنع وتصنيع بديع الزمان

رأينا بديع الزمان يعنى فى رسائله بتطبيق أساليب التصنيع عناية واسعة ، وقد أفرط فى ذلك إفراطاً أتاح لضروب من التصنع أن تتسرب إلى كتاباته ، ولعل فى مقدمة هذه الضروب ما نحسه عنده من مبالغات وتهويلات تشبه تهويلات الخوارزمى ومبالغاته ، بل لعل الخوارزمى لم يفرط إفراطه . على أن هذا ليس هو الجانب الأهم فى تصنع البديع ، بل هناك جوانب كثيرة نحسها لأول مرة عنده ، وإنها لتجعله قريباً من ذوق أصحاب التصنع إذ كان يحاول دائماً أن يأتى بجديد فى فنه ، وأدته هذه المحاولة إلى فنون من التصنع لا عهد لأصحاب التصنيع بها ، واستمعْ إلى هذه الرسالة التى كتبها يصف نهب اللصوص له فى أثناء رحيله من جُرْجان إلى نَيْسابور[1] :

« كتابى وأنا أحمد الله إلى الشيخ وأذم الدهر فما ترك لى فِضَّة إلا فَضَّها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا عِلْقاً إلا عَلِقه ، ولا عَقاراً إلا عَقَره ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا مالاً إلا مال إليه ، ولا حالاً إلا حال عليه ، ولا فرساً إلا افترسه ، ولا سَبَداً إلا استبَدّ به ولا لَبَداً إلا لبد[2] فيه ولا بِزّة إلا بزّها ، ولا عارية إلا ارتجعها ، ولا وديعةً إلا انتزعها ، ولا خلعةً إلا خَلَعها ، وأنا داخلٌ نيسابور ، ولا حِلْية إلا الجلدة ، ولا بُرْدة إلا القشرة » .

ألا تشعر بأن البديع فى هذه الرسالة قد تجاوز الطرق الطبيعية فى الزخرفة

---

(١) الرسائل ص ١٠٤ .

(٢) السبد واللبد من قولهم : ما له سبد ولا لبد ، أى لا قليل ولا كثير .

بزينة الجناس ، إذ أعنتَ نفسه هذا العنت فى طلبه ، فكل عبارة تخرج محملة به . وهذا هو معنى ما نقوله من أن الإفراط فى استخدام ألوان التصنيع يقود الكاتب إلى فنون من التصنع والتكلف الشديد . ولم يكن الخوارزمى ولا غير الخوارزمى من أصحاب مذهب التصنيع يضيِّقون على أنفسهم كل هذا الضيق ، فإذا هم لا يصنعون عبارة إلا ويوشّونها بزخرف من زخارف البديع ، ولكن ما لبديع الزمان وللخوارزمى وأصحابه ؟ إنه يريد أن يتفوق عليهم ، وهو لذلك يعمد إلى إعنات نفسه فى صناعته حتى يقع عمله من أهل عصره موقعاً غريباً ، وكأنما الإغراب أصبح هو البدع الجديد ، ولذلك نراه يلجأ إلى مثل هذه الجناسات التى نراها فى القطعة السابقة ، وانظرْ إليه يقول فى إحدى رسائله مفضلا العرب على العجم[1] :

« العرب أَوْفَى وأوفر ، وأوقى وأوقر ، وأنكى وأنكر ، وأعلى وأعلم ، وأحلى وأحلم ، وأقوى وأقوم ، وأبلى وأبلغ ، وأشجى وأشجع ، وأسمى وأسمح ، وأعطى وأعطف ، وألطى وألطف ، وأحصى وأحصف ، وأنقى وآنق ، ولا يُنكر ذلك إلا وقح وَتِح ، ولا يجحده إلا نَغِلٌ نغِر »[2] .

أرأيت إلى هذه الكثرة من الجناس الناقص ؟ إنها دليل آخر على ما نذهب إليه من أن زخرف الجناس عند البديع أخذ يفقد بعض قيمته القديمة لأن الكاتب يجعلنا نشرف على ضرب من التصنع فى استخدامه ، ومع أنه زخرف حقًّا ولكنا نحس أن طاقته القديمة فقدت بعض مميزاتها وما كان يسمها من حسن وجمال . والحق أن التطرف فى استخدام أدوات التصنيع على هذ النحو ينتهى بصاحبه إلى الخروج إلى مذهب التصنع ، والبديع لم يكن من أصحاب هذا المذهب ، ولكنه كان مغالياً فى تصنيعه مغالاة جعلته يدنو من ذوق أصحاب التصنع الذين يصعّبون فى تعبيرهم كما سنرى فيما بعد ، وقد كانوا

---

(١) الرسائل ص ٢٧٩ .

(٢) ألطى : أثقل على العدو . وتح : تافه ، نغل : فاسد ، نغر : غاضب .

يلتمسون هذا التصعيب — من بعض الوجوه — فى تعقيد زخرف التصنيع على نحو ما نرى الآن عند البديع . على أنه ينبغى أن نعرف أن البديع لم يكن يكثر من ذلك لأنه لم يكن يتخذه مذهباً ، ولكنا على كل حال نجده عنده ، وكأنه تعبير عن هذا التحول الذى أخذ يظهر قليلا قليلا فى ميادين التصنيع ، وهو تحول كان يراد به الانتقال إلى المذهب الجديد، مذهب التصنع .

وليس كل ما نجده عند البديع من الشعور بهذ التحول هو استخدامه للجناس على هذا النحو ، فنحن نجد عنده مظاهر أخرى ، لعل من أهمها جنوحه للغريب فى نثره ، كأن الغريب غاية يسعى إليها الكاتب ليحقق ضرباً من الجمال فى صناعته ، وأكبر الظن أنه كان للجناس واهتمامه به أثر فى استخدامه لهذا الغريب . وبجانب هذه الظاهرة التى تدل على التصنع والتكلف لأن استخدام الغريب لايُعَدُّ جمالا فى ذاته، نجد عنده ظاهرة أخرى ، وهى كثرة الأمثال فى نثره ، وأيضاً فقد كان يكثر من اقتباس القرآن الكريم فى كتابته . ولا يقف البديع عند ذلك بل نراه يكثر من تضمين الشعر ، وانظرْ إلى هذه الرسالة التى أرسل بها إلى الخوارزمى أول قدمه إلى نيسابور[1] :

« أنا لقرب الأستاذ — أطال الله بقاءه — (كما طرب النَّشْوان مالت به الخَمْرُ) ومن الارتياح للقائه (كما انتفض العصفور بلَّله القَطْر) ومن الامتزاج بولائه (كما التقت الصهباءُ والبارد العذب) ومن الابتهاج بمرآه (كما اهتز تحت البارحِ[2] الغُصن الرَّطْبُ) فكيف نشاط الأستاذ لصديق طَوَى إليه ما بين قصبتى العراق وخراسان ، بل ما بين عتبتى نيسابور وجرجان ، وكيف اهتزازه لضيف فى بردة جَمَّال ، وجلدة حَمَّال .

رَثّ الشمائل مُنْهَجِ الأثوابِ بكرتْ عليه مُغيرةُ الأغرابِ[3]

وهو — أيده الله — ولىّ إنعامه ، بإنفاذ غلامه إلى مستقرى ، لأفضى إليه بسرّى ، إن شاء الله تعالى » .

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٢٨ . (٣) منهج : بالى .

(٢) البارح : الريح الحارة فى الصيف .

وواضح أن البديع استعان أربع مرات فى أوائل رسالته بهذه الشطور من الشعر التى وضعناها بين أقواس، وما من ريب فى أنه جاء بها ليدلّ الخوارزمى على مهارته ، وهذا هو نفسه ما يجعلنا نشعر بأن البديع كان يستظهر شارات من التصنع فى عمله ، وهى شارات تضطره إلى الجناس المسرف أو الجناس المعقد ، كما تضطره إلى استخدام الغريب ، وأيضاً فإنها تضطره إلى هذا التضمين لشطور الشعر فى كلامه .

والواقع أننا نحس فى هذه الظواهر كلها أثراً من التصنع الذى أخذ القرن الرابع يعدّ لظهوره ، ويهيئ لخروجه بما كان يصنعه البديع والخوارزمى فى آثارهما. وقد كان البديع أقرب من الخوارزمى إلى ذوق التصنع ، ولعل ذلك ما جعله يميل إلى اللعب والعبث فى صناعته ، فقد روى الثعالبى فى يتيمته أنه «كان يكتب الكتاب المقترَح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرًّا إلى الأول »[1] ، وقد روى بديع الزمان نفسه فى رسائله صوراً كثيرة من هذا اللعب إذ نراه يُدلّ على الخوارزمى بأنه يستطيع أن يقترح عليه أربعمائه صنف فى الترسل ، ثم يستطرد فيصف بعض هذه الأصناف فيقول : إنه يستطيع أن يكتب كتاباً يُقْرَأ منه جوابه ، أو كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله ، أو كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً ، فإن عُكست سطوره مخالفة كان جواباً ، أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عنها ، أو كتاباً خالياً من الألف واللام ، أو كتاباً خالياً من الحروف العواطل ، أو كتاباً أول سطوره كلها ميم وآخرها جيم ، أو كتاباً إذا قرئ معرّجًا وسُرد معرّجًا كان شعراً، أو كتاباً إذا فُسِّر على وجه كان مدحاً وإذا فسر على وجه كان قدحاً [2].

ولعل من الطريف أن الخوارزمى حين سمع من بديع الزمان هذه الأصناف

---

(١) اليتيمة ٤/٢٤٠ ونجد فى معجم الأدباء أديباً معاصراً للبديع يسمى الصخرى يحاول أن يقلده فى هذا الجانب . انظر معجم الأدباء (طبع مصر) ٥/٢١ .

(٢) رسائل بديع الزمان ص ٧٤ .

الجديدة فى الكتابة قال : إنها شعبذة ، وحقًّا ما يقوله الخوارزمى فإنها لا تفصح عن جمال ، وإنما تفصح عن لعب ، والخوارزمى لم يكن يفهم هذا اللعب لأنه ليس من قبيل زخرف التصنيع الذى يعهده ، غير أننا لا نمضى عند بديع الزمان حتى نحس تحولا فى هذا الزخرف ، وهو تحول لا يتصل به مباشرة إنما يتصل بطرق أدائه ، فإذا هذه الطرق تصعّب هذا التصعيب الذى يحس فيه الخوارزمى ضرباً من ضروب الشعبذة ، وردّ البديع عليه حين أنكر منه ذلك بقوله : « إنك لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة ، وهذا النوع الواحد المتداوَل بكل قلم ، المتناوَل بكل يد وفم » [1] . ويقصّ علينا بديع الزمان أنه قرأ على الخوارزمى ومن حضروا مناظرتهما كتاباً منكوساً ثم سرده معكوساً وقال : «إن الجماعة بُهتت والعيون زَرَقَتْ [2] وفى إعجاب هذه الجماعة بشعبذته ما يدل على أننا أصبحنا على وشك الانتقال إلى مرحلة التصنع ، إذ أخذ الناس يعجبون بالطرق الغريبة فى التعبير كأن الإغراب من حيث هو شىء له جلاله وخطره فى صناعة الرسائل . وحقًّا إن البديع لم يتحول فى عمله كله إلى هذه الوجهة ، ولكننا نجد عنده بعض عناصرها وبعض مقدماتها ، بحيث لا نبعد إذا قلنا : إنه كان من أهم من رشّحوا لمذهب التصنع وظهوره .

٦

مقامات البديع وما فيها من تصنع

ونحن نعرض لضرب جديد من الكتابة ابتكره بديع الزمان لنرى ما فيه من تصنع ، وهو ما اشتهر به من مقاماته ، وهى نوع من القصص القصيرة تحفل بالحركة التمثيلية ، وفيها تدور المحاورة بين شخصين سُمِّى أحدهما عيسى بن

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ٧٦ . وظهر بياضها عجباً وحيرة .

(٢) الرسائل ص ٧٨ . وزرقت : انقلبت

هشام والآخر أبا الفتح الإسكندرى ، وهو من الأدباء السيّارين أو المُكْدين السائلين يطوف من مكان إلى مكان يستجدى الناس بفصاحته وبيانه ، يتقابل دائماً هذا الشخص المسمى بأبى الفتح الإسكندرى مع راوٍ له يحكى أخباره ، وهو عيسى بن هشام ، ويقول بديع الزمان — كما مر بنا — إنه أصنع أربعمائة قصة من هذا النوع أو كما يسميها هو مقامة(١) ، غير أنه لم يصلنا منها إلا نيف وخمسون فقط وأكبر الظن أن بديع الزمان كان بصدد الافتخار والتزيد فى عمله ، ولذلك ينبغى أن لا نفهم العدد الذى ذكره بمعناه الحرفى .

ويقف الباحثون عند كلمة مقامات التى أطلقها البديع على قصصه ويتساءلون عن المعانى التى جاءت فيها قبله(٢) ، وإن من يرجع إلى الشعر الجاهلى يجدها تستعمل فيه بمعنى المجالس ، يقول زهير بن أبى سُلمى فى بعض شعره(٣) :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهها ... وأنديةٌ ينتابها القــول والفعلُ
وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتهم ... مجالس قد يُشفَى بأحلامها الجهل

ثم توسع العرب فى معنى الكلمة فأصبحوا يطلقونها على خطبهم وأحاديثهم التى يقولونها فى مجالسهم ، وقد يفهم بيت زهير على هذا المعنى . واستمرت الكلمة تدل على المعنيين حتى عصر بديع الزمان نفسه ، إذ تجده يستخدمها فى رسائله بمعنى المجالس(٤) ، كما استخدمها الثعالبى بنفس المعنى(٥) ، وفى أخبار البديع أنه كان يختم مقامه أو مجلسه فى نيسابور بقصة من هذه القصص ، ولعله من أجل ذلك اختار لها اسم المقامات .

---

(١) الرسائل ص ٣٩٠ ، ٥١٦ وانظر اليتيمة ٢٤١/٤ .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية فى ترجمة بديع الزمان وفى كلمة مقامة أيضاً .

(٣) ديوان زهير (طبع دار الكتب) ص ١١٣ . وانظر ديوان لبيد (طبع بريل) ص ٣٩ والمفضليات (طبعة لايل) ص ١٢٢ والحماسة (طبع أوربا) ص ٩٥ .

(٤) رسائل بديع الزمان ص ١٠٦ .

(٥) انظر ما نقله ياقوت عن الثعالبى فى معجم الأدباء (طبع مصر) ١٦٦/٢ .

وذكر الحصرى أن بديع الزمان ألف هذه المقامات معارضة لابن دُرَيْد المتوفى عام ٣٢١ هـ إذ يقول إن البديع « لما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها إلى الأفكار والضمائر ، فى معارض حوشية ، وألفاظ عُنْجُهِيَّة ، فجاء أكثرها يَنْبُو عن قبول الطباع ، ولا تُرْفَعُ له حجب الأسماع . . . عارضه بأربعمائة مقامة فى الكُدْية تذوب ظرفاً ، وتقطر حسناً » [١] على أنه ينبغى أن نلاحظ أحاديث ابن دريد تخالف مقامات الهمذانى فى موضوعها ، إذ أن ما رواه له القالى فى كتابه الأمالى منها يدور غالباً حول حكايات عربية قديمة ، للتاريخ والحب فيها نصيب ، بينما أقاصيص بديع الزمان تدور على التسول والكُدْية ومع ذلك فالعلاقة بين العملين واضحة أولا من حيث الاسم فإن من معانى كلمة مقامة التى اختارها بديع الزمان لقصصه « حديثاً » وتجمع على أحاديث وهو نفس الاسم الذى اقترحه ابن دريد لأقاصيصه ؛ وثانياً من حيث الغاية فأحاديث ابن دريد ومقامات بديع الزمان أُلِّفتا لغاية واحدة ، هى تعليم الناشئة اللغة .

والمقامات تصور حياة الأدباء السيارين الذين كانوا يسمون باسم الساسانيين نسبة إلى ساسان وهو شخص فارسى قديم يقال إن أباه حرمه من الملك ، فهام على وجهه محترفاً للكدية . ومن يقرأ فى اليتيمة يجد طائفة الساسانيين هذه تحتل حيزاً فى الحياة الأدبية للقرن الرابع الهجرى ، وهى تشبه تمام الشبه طائفة «الأدباتية» التى اشتهرت عندنا بمصر فى القرن التاسع عشر الميلادى ، إذ كانوا يتخذون الأدب والشعر وما يتصل بهما من فصاحة وبلاغة وسيلة إلى كسب المال وابتزازه ، ومن يرجع إلى بخلاء الجاحظ يجده يعرض لهذه الطائفة وحيلها [٢] . وقد تحدث عنها البيهقى فى القرن الرابع [٣] ، وإذا استمررنا فى هذا القرن إلى عصر بديع الزمان وجدنا هذه الطائفة تتضح شخصيتها فى الحياة الاجتماعية بأوسع

---

(١) زهر الآداب للحصرى ١/٣٠٧ .

(٢) البخلاء ١/٨٦ .

(٣) المحاسن والمساوىء للبيهقى طبع أوربا ص ٦٢٢ .

مما كانت عليه قبل ذلك ، اشتهر من شعرائها حينئذ الأحنف العكبرى وأبو دلف الخزرجى ، أما الأحنف فيقول عنه صاحب اليتيمة : إنه « شاعر المُكْدين وظريفهم ، ومليح الجملة والتفصيل منهم » ، وروى له بعقب ذلك قصيدة دالية طويلة عرض فيها لحرفة الكُدْية عرضاً واسعاً[١] ، وأما أبو دلف فيقول فيه صاحب اليتيمة : « شاعر كثير المُلَح والطُّرف ، مشحوذ المُدْية فى الكُدْية ، خنَق التسعين فى الإطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب ، وضرْب صفحة المحراب بالجراب ، فى خدمة العلوم والآداب . . وكان ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده . ولما أتحفه بقصيدته التى عارض بها دالية الأحنف العكبرى فى المناكاة وذكر المكْدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم . . اهتز ونشط لها ، وتبجح بها ، وتحفظها كلها وأجزل صلته عليها »[٢] . وهى قصيدة طويلة رواها صاحب اليتيمة ، وفيها ذكر الأحنف الألفاظ الاصطلاحية لأهل الكدية وما كانوا يتخذونه فى مناكاتهم أى كلامهم الذى يتكدون به من مصطلحات خاصة ، كما ذكر حيلهم وتفننهم فى هذه الحيل على صور شتى[٣] وعرض بديع الزمان فى مقاماته لكثير من هذه الحيل[٤] ، كما سمى مقامة له باسم المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة ، وما لنا نذهب بعيداً ، وقد كان البديع نفسه راوية لأبى دلف[٥] فقد نسب إلى أبى الفتح الإسكندرى بطل مقاماته هذه الأبيات[٦] :

ويحك هذا الزمان زورُ ... فلا يغرَّنَّك الغُرورُ
زوِّق ومخْرِقْ وكُلْ وأطْبقْ ... واسرقْ وطَبِّق لمن يزورُ
لا تلتزم حالةً ولكنْ ... دُرْ بالليالى كما تدورُ

وهى من شعر أبى دلف[٧] . وكل ذلك يؤكد الصلة ويوثقها بين بديع

---

(١) اليتيمة ٣/١٠٤ .
(٢) اليتيمة ٣/٣٢١ .
(٣) اليتيمة ٣/٣٢٤ .
(٤) انظر المقامة الرصافية فى مجموع مقاماته وهى تعتبر من بعض الوجوه نثراً لقصيدة أبى دلف المذكورة .
(٥) اليتيمة ٣/٣٢٣ .
(٦) انظر المقامة الأولى من مقاماته وهى المقامة القريضية .
(٧) اليتيمة ٣/٣٢٣ .

الزمان فى مقاماته وبين أهل الكُدْية فى زمنه، ومهما يكن فقد استطاع بديع الزمان أن ينفذ من نمو هذه الطائفة فى عصره وما اشتهرت به من حيلها إلى صنع مقاماته . ويسوق البديع هذه المقامات فى شكل قصص درامية صغيرة ، يمكن أن تعتبر المقامات كلها قصة واحدة تعبر عن أطوار مستقلة من حياة بطلها أبى الفتح الإسكندرى ، أو قل إنها تعبر عن حوادث مستقلة من أيامه . صيغت فى أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار ، وفيها نرى أبا الفتح يحتال على الناس بطرق مختلفة من بلاغته ، ليبتزّ أموالهم ، وفى أغلب أمره يلتقى به عيسى بن هشام فيعجب بفصاحته ويكشف اللثام عن وجهه ، وفى كل مرة لا يخطئه، فهو دائماً أبو الفتح الإسكندرى ! . . وما من ريب فى أن هذه الصورة تخرج فى كثير من جوانبها بالمقامات عن أسلوب القصص المشوق إلى أسلوب السَّرْد ، وإن كنا لا نعدم فيها القصص الدرامية الطريفة .

وكان هَمُّ بديع الزمان الأول أن يجمع فى كل مقامة من مقاماته طائفة من الأساليب البلاغية المصنّعة التى تعتمد على السجع والبديع ، وإنه ليسرف فى تجميل كل مقامة بأوسع طاقة ممكنة من الزخرف والزينة والتنميق ، ومن ثَمَّ انصرف عن الموضوع إلى الأسلوب وذهب يجمله ويرصعه فنوناً من التجميل والترصيع ، فالترصيع والتجميل هما غايته من عمله حتى تستوى له طُرَفٌ إنشائية بليغة تروع معاصريه، وقد كان القدماء أنفسهم يعرفون ذلك ، يقول ابن الطقطقى : « إن المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الإنشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر »[1]. وإن من يتابع البديع فى مقاماته يحس حقًّا أنه ألفها لغرض التمرن على الكتابة والإنشاء ، فإنه يعنى دائماً بالوصف ، ولا يصف شيئاً إلا راكم فيه العبارات « ورصّها رصًّا » ليختار منها الكاتب ما يريد ، وانظرْ إليه يصف الخَمْر على لسان ربة حانة فيقول[2] :

« هذه خمر كأنما اعتصرها من خدّى ، أجداد جدّى ، وسربلوها من القار

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية (طبع المطبعة الرحمانية) ص ١٠ .

(٢) انظر فى ذلك المقامة الخمرية .

بمثل هجرى وصدّى ، وديعة الدهور ، وخبيئة جَيْب السرور ، وما زالت تتوارثها الأخيار ، ويأخذ منها الليل والنهار ، حتى لم يبق إلا أرَجٌ وشعاع ، ووَهجٌ لذَّاع . ريحانة النفس وضرّة الشمس ، فتاة البرْق [١] ، عجوز المَلَق ، كاللهب فى العروق ، وكبرد النسيم فى الحلوق ، مصباح الفكر ، وترياق سمّ الدهر ، بمثلها عُزّر الميت ، فانتشر ودُووِىَ الأكمه فأبصر » .

ألا تحس بأن بديع الزمان يحاول هنا أن يجمع أكثر ما يمكنه من أوصاف الخمر ليسلكها فى عقد مقاماته ، وهو ينظر إلى كل عبارة كأنها جوهرة يريد أن يضعها فى هذا العقد حتى تتلألأ بقوة أوسع من قوة جارتها ، وما يزال يحتال على هذه الجواهر يضمها بعضها إلى بعض حتى ينال استحسان سامعيه فى نيسابور موطن الخوارزمى وموطن فصاحته ، وما اشتهر به من بلاغته ، وكأنه يريد أن يصرف تلاميذه عنه بما يروعهم به من هذه الأساليب المصنَّعه التى تتراكم فى مقاماته تراكماً ، وانظرْ إليه يقول فى المقامة الأسدية :

« اتفقت لى حاجة بحِمْص ، فشحَذت إليها الحِرْصَ ، فى صحبة أفراد كنجوم الليل ، أحْلاس [٢] لظهور الخيل ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ، ونستأصل شأفته ، ولم نزل نَفْرِى [٣] أسْنمة النِّجاد ، بتلك الجياد ، حتى صِرْنَ كالعصىّ ، ورَجَعْنَ كالقِسىّ ، وتاح [٤] لنا واد فى سفح جبل ، ذى ألاء وأثْل [٥] ، كالعذارى يسرِّحن الضَّفائر ، وينشرْنَ الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا إليها ، ونزلنا نغوِّر ونغور [٦] ، وربطنا الأفراس بالأمراس [٧] ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا إلا صهيل الخيل ، ونظرت إلى فرسى وقد أرهف أذنيه ، وطَمَحَ بعينيه ، يَجُذّ قوى الحبل بمشافره ، ويخدّ خدّ الأرض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فتقطعت الحبال ، وأخذتْ نحو الجبال ، وطار كل واحد منا إلى سلاحه فإذا السبع

---

(١) البرق : التزيين : يريد أن الخمر كالفتاة فى زينتها ثم هى كالعجوز فى تملقها وترددها .

(٢) أحلاس : جمع حلس وهو الملازم .

(٣) نفرى : نقطع ، والنجاد : جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض .

(٤) تاح : عرض .

(٥) ألاء وأثل : من أشجار البادية .

(٦) نغوّر : نهبط فى الأودية ، نغور : ننام .

(٧) الأمراس : الحبال .

فى فَرْوة الموت ، قد طلع من غابه ، منتفخاً فى إهابه ، كاشراً عن أنيابه ، بطرْف قد مُلِئ صَلَفا ، وأنف قد حُشى أنَفاً ، وصَدْرٍ لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرُّعْب ، وقلنا خطب مُلِم ، وحادث مهم ، وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتى :

أخضرُ الجِلْدَةِ فى بيت العرب   يملأ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ[1]

بقلب ساقه قدر ، وسيف كله أثر ، وملكته سوْرة الأسد ، فخانته أرض قدمه ، حتى سقط لِيَده وفمه، وتجاوز الأسد مصرعه، إلى من كان معه ، ودعا الحيْن[2] أخاه، بمثل ما دعاه ، فصار إليه، وعَقَلَ الرعب يديه ، فأخذ أرضه ، وافترش الليث صدره ، ولكنى رميته بعمامتى وشغلت فمه ، حتى حقنت دمه ، وقام الفتى فوجَأ[3] بطنه حتى هلك الفتى من خوفه، والأسدُ للوجأة فى جوفه » .

وأنت ترى أن بديع الزمان يعنى عناية واضحة برصف أسجاعه مضيفاً عليها ألواناً من البديع وخاصة من الجناس والتصوير ، إذ كان يهتم بهما اهتماماً واسعاً ، كما كان يهتم بشىء آخر وهو كثرة حشده للغريب فى مقاماته على نحو ما نرى فى المقامة النَّهدية . وارجع إلى المقامة الحمدانية فستراه هناك يصف فرساً فيعنت نفسه فى الإتيان باللفظ الغريب حتى إذا استوفى من ذلك ما يريد ، عاد فشرح لفظه كأنه أستاذ من أساتذة اللغة، لا أديب ينشئ قصة ، وهذا نفسه أحد الأدلة على أنه لم يرد بكثير من مقاماته إلى غاية قصصية خالصة، إنما أراد بها إلى غاية تعليمية، وقد أدته هذه الغاية إلى أن يكثر من الأساليب المصنَّعة ، كما أدته إلى أن يكثر من اللفظ الغريب ، وقد تلوّم من أجلهما الجاحظ وحمل عليه حملة شعواء فى مقامة سماها المقامة الجاحظية ، وفيها يقول عنه : إنه « قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعريان

(١) أخضر هنا : أسمر . والسمرة هى اللون الخاص بالعرب . الكرب : قطعة حبل تربط فى الخشبتين المعترضتين فى فم الدلو : والشطر مثل يضرب للمغلوب فى أى شىء .

(٢) الحين : الموت .

(٣) وجأ بطنه : شقها .

الكلام يستعمله ، نفور من مُعتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة » . ونحن لا نلوم البديع على اهتمامه بالاستعارات لأنها كانت إحدى زخارف مذهب التصنيع ، ولكن نلومه على اهتمامه بالكلمات المعتاصة الغريبة غير المسموعة ، فإن إغراب الكلمات من حيث هو لا يمكن أن يعتبر زخرفاً أو تجميلا وتصنيعاً ، بل إنه يعتبر عيباً وآفة حين يحتكم إليه الكاتب فى فنه ، وما الجمال الذى يستهويه فيه ؟ إنه يخلو من كل جمال ، وإنه لدليل على أن وسائل الأداء فى النثر أخذت تتعقد منذ البديع ، إذ يجنح الكاتب إلى وسائل لا تتصل بالفن وإنما تتصل بالإغراب من حيث هو ، ومن أجل ذلك كنا نزعم أن بديع الزمان — على الرغم من أنه علم من أعلام فن التصنيع — أخذ التصنع يتسرب إلى آثاره ونماذجه فى رسائله ومقاماته ، وهل أدل على ذلك من أنه كان يتخذ اللفظ الغريب كطرفة فنية يعيب بها الجاحظ وغيره من سابقيه ، وحقًّا إنه لم يطبق ذلك على كل مقاماته ولا على كل جوانبها ، ولكنه على كل حال عُنى به فيها كما عنى به فى رسائله .

وبجانب عنايته باللفظ الغريب فى المقامات نجده يعنى بما سبق أن عرضنا له من كثرة تضمين الشعر ، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم ، وحشد بعض الأمثال . وكل هذه المظاهر سنراها واضحة عند أصحاب مذهب التصنع ، وأيضاً فإنه كان يعنى فى المقامات بتعقيد أداة التصنيع التى كان يعجب بها وهى أداة الجناس ، وربما كانت أحد الأسباب التى جعلته يعنى بالغريب فإن المعجم العادى قد لا يعطيه الكلمة التى يريدها ، فيبحث عنها فى المعجم الغريب ، وحينئذ لا يهمه إبهامها ولا اعتياصها كقوله : « أميس مَيْسَ الرجلة ، على شاطئ الدجْلة »[1] ، فإن مجانسته لكلمة الدجلة هى التى اضطرته إلى كلمة الرجلة ، وهى جمع رجل ، وهو جمع شاذ ، لكنه عدل إليه من أجل جناسه ، ومثل ذلك أيضاً قوله : « فأخذه الجُفّ ، وملكته

---

(١) مقامات بديع الزمان (الطبعة الثانية ببيروت) ص ١٠١ .

الأكف »[١] ، والجحف : العدد الكثير من الناس ، ومثله قوله : « الإكراه مرة بالمِرّة ، ومرة بالدِّرّة »[٢] ، والمرة هنا العقل ، وقد استخدمها لغرض الجناس بينها وبين الدرة . وعلى هذا النحو كانت تضطره المجانسة أحياناً إلى ما يركب من لفظه الغريب ، وليس ذلك كل ما يلاحظ فى جناسه ، فإننا نلاحظ عليه أيضاً الإفراط فيه حتى ليعدل كثيراً إلى الجناس الناقص من جهة كما يعدل إلى الجناس المعكوس من جهة أخرى على نحو ما نرى فى مثل قوله : « ولكنى أبو العجائب عاينتها وعانيتها ، وأم الكبائر قايستها وقاسيتها »[٣] ، فقد قلب عاينتها فخرجت له عانيتها ، وقلب قايستها فخرجت له قاسيتها ، ومن ذلك قوله : « بينما أنا أسير فى بلاد تميم مرتحلا نجيبة ، وقائداً جنيبة »[٤] ، فقد قلب نجيبة فخرجت له جنيبة ، ومن ذلك قوله : « أعانى الفقر ، وأمانى القفر »[٥] ، فقد قلب الفقر فخرجت له القفر ، ومثل ذلك أيضاً قوله : « يزهى بحليته ، ويباهى بلحيته »[٦] فقد قلب حليته فخرجت له لحيته .

وما من ريب فى أن هذه الجوانب كلها عند البديع هى التى تجعلنا نزعم أنه كان مقدمة من مقدمات مذهب التصنع ، وليس معنى ذلك أنه يخرج عن مذهب التصنيع وإطاره ، بل هو أحد أساتذته فى عصره ، حتى لتشبه المقامة من مقاماته واجهة أحد المساجد المزخرفة لعهده ، لكثرة ما شُغل فيه بالتنميق والتصنيع والترصيع ، وغاية ما فى الأمر أنه وجد فى هذه المرحلة التى أخذت تتحول فيها صناعة النثر العربى من مذهب التصنيع إلى مذهب التصنع ، فتسربت شيات وسمات من ذلك إلى عمله ، وإنها لشيات وسمات تدل على أننا أصبحنا على وشك التلاقى بمذهب التصنع وكبار أنصاره وأصحابه .

---

(١) المقامات ص ١٠٦ .
(٢) مقامات بديع الزمان ص ١٢٩ . والدرة : العصا .
(٣) نفس المصدر ص ٢٦ .
(٤) نفس المصدر ص ٤٣ .
(٥) نفس المصدر ص ٥٣ . وأمانى : أدارى من فزعى .
(٦) نفس المصدر ص ١٩٣ .

٧

قابوس بن وشمكير وتصنعه

هو أمير من أمراء الأسرة الزيارية التى كانت تحكم طَبرستان وجُرْجان ، وهما ولايتان تقعان فى الجنوب والجنوب الشرقى لبحر طبرستان ، أو كما يسمى الآن بحر الخزر ، والزياريون ينحدرون من بيت عظيم من بيوت الفرس ، إذ يقال إنهم ينتسبون إلى ملك ساسانى هو قُباذ[١] . وقد ولى قابوس الحكم عام ٣٦٧ هـ[٢] ولقبه خليفة بغداد — على عادته فى تلقيب حكام الولايات الفارسية ألقاباً مختلفة — بلقب شمس المعالى[٣] ، واستهدف فى أوائل حكمه لغارات كثيرة من بنى بويه ، وما زالوا به حتى فر من إمارته عام ٣٧١ هـ إلى السامانيين ، حيث عاش مكرماً حتى عام ٣٨٨ وهو العام الذى توفى فيه فخر الدولة البويهى ، وفيه استرد ملكه [٤] . على أن جنده وقواده حاصروه فى أواخر حياته ، لما كان فيه من بطش شديد ، واضطروه إلى التنازل عن ملكه لابنه منوجهر ، يقول العتبى : « قد كان قابوس على ما خُصَّ به من المناقب ، والرأى البصير بالعواقب ، والمجد المنيف على النجم الثاقب ، مُرَّ السياسة ، لا تستساغ كأسه ، ولا تؤمن بحال سطوته وبأسه ، يقابل زلة القدم بإراقة الدم . . . وما زالت هذه حاله حتى استوحشت النفوس منه . . وتآمر أعيان العسكر على خلعه »[٥] فخلعوه ، واضطر ابنه أن ينزل على إرادتهم وأن يخلع أباه ، بل لقد حبسه فى إحدى القلاع بجرجان واستمر بها حتى اغتيل عام ٤٠٣ هـ[٦] .

وكان قابوس واسع المروءة ، عالى النفس ، بعيد الهمة ، لا يحب الملق

---

(١) Browne, Lit. Hist. of Persia, II, pp. 91, 103.

(٢) معجم الأدباء ١٦/٢٢٠ .

(٣) نفس المصدر ١٦/٢٢٠ .

(٤) نفس المصدر ١٦/٢٢٧ .

(٥) اليمينى للعتبى مع شرح المنينى ٢/١٧٢ .

(٦) نفس المصدر ٢/١٧٥ ومعجم الأدباء ١٦/٢٢١ .

ولا المداهنة ، حتى قالوا إنه كان يأبى أن يستمع إلى مدائح الشعراء له ، مع عطفه عليهم ، وبذله لهم الجوائز والمكافآت [١]. وقد زاره البيرونى وقدم له كتابه «الآثار الباقية» ، كما قدم له الثعالبى « كتابى المبهج» و«التمثل والمحاضرة». ومعنى ذلك أنه كان يشجع الأدباء والعلماء . وكان أديباً ممتازاً نال حظاً واسعاً من ثقافة عصره وخاصة الفلسفة وعلم الفلك والنجوم[٢] . يقول الثعالبى : « جمع الله له إلى عزة الملك بسطه العلم »[٣]، ويقول العتبى : « لم يسمع فى شيوخ الملوك بأبرع منه فى الآداب والحكم »[٤] ، وقد مدحه أحد الشعراء مستغلا لقبه « شمس الدولة » فقال[٥] :

لله شمسان تذكيرٌ لخيرهما وللمؤنثة النقصانُ ملتزمُ
أزْرَى بتلك سنّاً من غير معرفة فيها وزيّن هذا العلم والكرمُ
يا أيها الملك الميمونُ طائرُهُ وخير من فى الورى يمشى به القدمُ
لو كنتَ من قبل ترعانا وتكنفنا لما تهدى إلينا الشيب والهرمُ

واشتهر قابوس ببيانه وفصاحته ، يقول الثعالبى : « إنى أتوج هذا الكتاب بِلُمع من ثمار بلاغته » [٦] ويقول العتبى : « إن رسائله موجودة فى البلاد، عند الأفراد لكنى أكتفى منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه »[٧] . وقد جمع اليزدادى فى عصر قريب من عصر قابوس هذه الرسائل وسماها كمال البلاغة ، وقدم لها بمقدمة طريفة أشاد فيها ببلاغته ، ثم حاول أن يحلل هذه البلاغة فاستخرج منها أربعة عشر نوعاً فى طريقة التسجيع واستخدام القرائن واللوازم المتصلة بالسجعات ، وإن نظرة فى هذا الكتاب تجعل القارئ يحس مدى التعقيدات التى كان يتخذها قابوس فى حرفته ، ولسنا ندرى من أين جاءته هذه التعقيدات إلا أن يكون للفراغ الذى

---

(١) معجم الأدباء ١٦/٢٢٩ .
(٢) انظر كتاب براون السابق ٢/١٠٣ .
(٣) اليتيمة ٤/٥٦ .
(٤) اليمينى مع شرح المنينى ٢/١٧ .
(٥) اليتيمة ٤/٤٧ واليمينى ١/١١٥ .
(٦) اليتيمة ٤/٥٦ .
(٧) اليمينى ٢/١٧ .

أصابه وهو معزول عن حكمه أثر فى ذلك ، وهو فراغ طال طولا شديداً ، نحو ثمانية عشر عاماً لم يكن له فيها أى عمل ، فماذا يصنع ؟ وكيف يمضى أوقات فراغه ؟ هل يعمد إلى اللهو ؟ كلا فإن العتبى يقول : « إنه فطم نفسه عن رضاع الملاهى »[١] . إذاً فكيف يصنع بهذا الفراغ الهائل الذى امتد أياماً بل أسابيع وشهوراً ، بل أعواماً ، بل ثمانية عشر عاماً ؟ لقد اتجه إلى الأدب يقطع به هذا الفراغ ، فهو يتخذه لهوه ، أو قل يتخذه لُعبته ، وقد تحولت عنده هذه اللعبة إلى ما يشبه لعبة الشطرنج التى كانت شائعة فى عصره ؛ فهو يمضى فيه الساعات الطوال ، بل قل الأشهر الطوال والسنين الطوال ، يعبث به ويلعب بأسجاعه ، ويحاول أن يصل فى أثناء هذا العبث واللعب إلى ما لم يصل إليه أى كاتب فى عصره ، أليس هو الأمير ابن الأمراء الذى كان آباؤه يجلسون على أسرّة من ذهب[٢] ؟ إنه ليصنّع — على طريقة كتاب عصره — فيحسن التصنيع ، ولكنه يرى ذلك شيئاً عادياً بالقياس إليه وهو لا يعطيه ما يريده من تفوق عليهم ، لذلك نراه يجنح إلى فنون من التعقيد فى أداء تصنيعه ، وهى فنون تنتقل به وبعمله إلى مذهب جديد هو مذهب التصنع وهو مذهب جرَّه إليه إغرامه بالإغراب فى استخدام أدوات التصنيع ، واستمعْ إليه يكتب إلى خاله الإصْبَهْبذ ، وهو أحد قائدين أيداه فى العودة إلى ملكه ، إلا أنه عاد فأخلد فى أحد الحصون إلى جانب المجانبة[٣] ، فكتب إليه بهذه الرسالة[٤] :

« الإنسانُ خُلق ألوفاً ، وطبع عطوفاً فما للإصبهبذ سيدى لا يُحْنَى عُوده ، ولا يُرجى عَوْده ، ولا يخال لفَيْئته مَخيلة ، ولا يحال تنكره بحيلة ، أمن صخر تدمر قلبه فليس يُلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فلا يُميله الإعتاب ، أم من صفاقة دهرٍ مجَنٍّ نُبوّه فقد نبا عنه غَرْب كل حجاج ، أم من قساوته مزاج إبائه فقد أبى على كل علاج . ما هذا الاختيار الذى يعد الوهم فهماً ،

---

(١) اليمينى ٢/١٦ .
(٢) معجم الأدباء ١٦/٢١٩ .
(٣) اليمينى ٢/١٤ .
(٤) انظر كمال البلاغة وهو يتضمن رسائل شمس المعالى قابوس بن وشمكير (طبع المطبعة السلفية) ص ٥٣ .

وهذا التمييز الذى يحسب الخير شرًّا ؟ وما هذا الرأى الذى يزيّن له قبح العقوق ، ويُسمقت إليه رعاية الحقوق ؟ وما هذا الإعراض الذى صار ضربة لازب ، والنسيان الذى أنساه كل واجب ؟ أين الطبع الذى هو للصُّدود صَدود ، وللتألف ألوف ودود ؟ وأين الخُلُق الذى هو فى وجه الدنيا البشاشة والبشر ، وفى مبسمها الثنايا الغُرّ ؟ وأين الحياء الذى يجلّى بمحاسنه الكرم ، وتتغنّى بمحاسنه الشيم ؟ كيف يُزْهَد فيمن ملك عِنان الدهر فهو طوع قياده ، وتبع مراده ، يُنْظَر أمره ليمتثل ، ويُرْقَبُ نهيه فيعتزل ؟ وكيف يُعرَض عمن تُعرض رفاهة العيش بإعراضه ، وتنقبض الأرزاق بانقباضه ، ومن أضاء نجم الإقبال إذا أقبل ، وأهلّ هلال الجدّ إذا تهلل ؟ وكيف يُزْهَى على من تحقر فى عينه الدنيا ، ويرى تحته السماء العليا ، قد ركب عنق الفلك ، واستوى على ذات الحُبك ، فتبرّجت له البروج ، وتكوكبت لعبادته الكواكب ، واستجارت بعزته المجرّة ، وأثرت بمآثره أوضاحُ الثريّا ؟ بل كيف يهوّن من لو شاء عقد الهواء ، وجسّم الهباء ، وفصل تراكيب السماء ، وألف بين النار والماء ، وأكمد ضياء الشمس والقمر ، وكفاهما عناء السير والسفر ، وسد مناخر الرياح الزعازع ، وطبق أجفان البروق اللوامع ، وقطع ألسنة الرعود بسيف الوعيد ، ونظم صوب الغمام نظم الفريد ، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل ، وقضى بما يراه على القضاء النازل ، وعرض الشيطان بمعرض الإنسان ، وكحل الحور العين بصور الغيلان ، وأنبت العشب على البحار ، وألبس الليل ضوء النهار ؟ ولم لا يعلم أن مهاجرة من هذه قدرته ضلال ، ومباينة من هذه صفته خبال ، وأن من له هذه المعجزات يُشْترى رضاه بالنفس والحياة ، ومن أتى بهذه الآيات يبتغى هواه بالصوم والصلاة ؟ . .

وليس الحاحى على سيدى مستعيداً وصاله ، ومستصلحاً خصاله ، وعَدّى عليه هذه العجائب ، ووثوبى لاسمّالة من جانب إلى جانب ، لأنى كنت ممن يرغب فى راغب عن وصلته ، أو ينزع إلى نازع عن خلّته ، أو يؤثّل حالا عند من ينحت أثْلَتَهُ ، أو يقبل بوجهه على من لا يجعله قِبْلته ، فإنى لو علمت أن الأرض لا تسفُّ تراب قدمى لجنبّها جنبى ، وأن السماء لا تتوق إلى تقبيل

هامىّ لقلبت عن ذكرها قلبي ، لكنى أكره أن يتعرى نحره من قلائد الحمد، ويجتنب جبينه إكليل المجد . . ولا يعجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول ، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول ، فإن فضّل سيدى الخمود على الوقود ، والعدم على الوجود ، ونزل من شاهق إلى خفض ، ومن حالق إلى أرض ، وهاجر بهجره ، وأصرّ على صرمه ، ومال إلى الملال ، ولم يصل نار الوصال ، حللتُ عنه معقود خنصرى ، وشغلت عن الشغل به خاطرى ، بل محوت ذكره عن صفحة فؤادى ، واعتددت ودّه فيما سال به الوادى :

فنى الناس إن رثّتْ حبالك واصلٌ   وفى الأرض عن دار القِلَى متحوَّلُ »

وأنت ترى شيات التصنع واضحة فى هذه الرسالة ، لا بما يعمد إليه قابوس من مبالغات وصور غريبة فحسب ، بل بما يعمد إليه من استخدام الجناس استخداماً معقداً ، وإنه لتعقيد يبدو فى جميع جوانب الرسالة ، وانظرْ إليه فى مستهلها يجانس بين عُوده وعَوْده ، وهو جناس نراه فى جميع رسائله ، إذ يعمد إلى المغايرة فى بعض الحركات أو بعض الحروف ، فإذا هو يقع على مثل هذا الجناس الذى يمكن أن نسميه جناس الخطّ ، وقد يكون لجمال خطه أثر فيه ، يقول العتبى : « أما خطّه فسمّه إن شئت وشياً محبوكاً ، أو تبراً مسبوكاً ، أو درّاً مفصّلا ، أو سحراً محصلا ، وكان إسماعيل بن عباد (الصاحب) إذا قرأ خطه يقول : هذا خَطُّ قابوس أم جناح طاووس » [1] . وأفرط فى استخدام هذا الجناس الخطى ، إذ تعود أن يعيد الكلمة التى كتبها بشكل جميل مرة أخرى مع إعطائها حركة جديدة أو مع تبديل بعض حروفها ، فإذا هو يكثر من هذا الجناس فى رسائله إكثاراً ، واستمر فى قراءة الرسالة فسترى هذه السجعة « ولا يخال لفيئته مخيلة ، ولا يحال تنكره بحيلة » . وواضح أنه جانس هنا جناساً خطيًّا بين يخال ويحال كما جانس نفس الجناس بين مخيلة ومحيلة . وليس ذلك كل ما عُنى به ، فقد عُنى بشىء

---

(١) اليمينى مع شرح المنينى ٢ / ٢٦ .

آخر لعله أكثر من ذلك تعقيداً ، وهو أنه جانس بين أول كلمة فى السجعة الأولى وآخرها أى بين يخال ومخيلة ، وكذلك صنع بالسجعة الثانية إذ جانس بين يحال وبحيلة ، وإن فى ذلك ما يجعلنا نحس أنه يصعب على نفسه الممرات التى يسلكها إلى نهاية قرائنه وأسجاعه ، فهو يبدأ عبارته بكلمة ثم يطلب الجناس بينها وبين آخر كلمة فيها ، وهو يتخذ ذلك مصراً عليه ، إذ نراه يعدل إليه مراراً فى هذه الرسالة وفى رسائله الأخرى ، وتأمل هذه السجعة الطويلة فى الرسالة: « أم من صفاقة الدهر مجنّ نُبُوُّه ، فقد نبا عنه غرب كل حجاج ، أم من قساوته مزاج إبائه ، فقد أبى على كل علاج » ، فإنك تراه يسجع العبارتين تسجيعاً داخليًّا فإذا هما تنحلان إلى أربع سجعات لا إلى سجعتين كما يبدو فى الظاهر . ولكن ليس هذا ما يلفتنا عند قابوس ، إنما يلفتنا أنه أنهى السجعة الداخلية الأولى بكلمة اشتق منها أخرى فى مطلع الجملة التالية لها ، وكذلك صنع السجعة الداخلية الثانية . أرأيت إلى الممرات كيف تعقّد وتصعب بطرق شتّى ؟ واستمر فى الرسالة فستراه يأتى بطريقة ثالثة ؛ إذ يجانس بين كلمة فى داخل العبارة وبين نهايتها كقوله : « أضاء نجم الإقبال إذا أقبل ، وأهل هلال المجد إذا تهلل » . ولا تظن أن هذه طرفة بل هى عقدة ، فقد أصبح الفن فى رأى قابوس عقداً خالصة ، وهو لذلك يعقد عباراته هذا التعقيد الذى يصعّب فيه الممرات إليها على نحو ما مر من أمثلة ، وكما نرى فى هذه العبارات بالرسالة نفسها « تبرجت له البروج ، وتكوكبت لعبادته الكواكب ، واستجارت بعزته المجرة ، وأثرت بمآثره أوضاح الثريا » ، وما من ريب فى أن هذه الجناسات تحمل أوسع سمات للتصنع ، إذ نراه يلزّق الجناس بكلامه تلزيقاً ، وإن الإنسان ليشعر كأنما فقد الجناس بهجته القديمة من الزخرف والتصنيع ، فقد تحول إلى صورة جديدة تستطيع أن تسميها صورة هندسية ولكنك لا تستطيع أن تسميها صورة زخرفية لأنها لا تحوى حسناً ولا جمالا ، وهل هناك حسن أو جمال فى قوله : « كنت ممن يرغب فى راغب عن وصلته ، أو ينزع إلى نازع عن خلته » . أو قوله : « يؤثل حالا عند من ينحت أثلته ،

أو يقبل بوجهه على من لا يجعله قبلته » أو قوله : « هاجر بهجره ، وأصرَّ على صَرْمه ، ومال إلى الملال ، ولم يَصْلَ نارالوصال» . وما نار الوصال هذه التى يريده أن يصلاها ؟ إنها صورة غريبة ، بل هى صورة شاذة نابية ، ولكن قابوس لا يعنى بما فيها من شذوذ ونبوّ ما دامت تحقق ما يريد من جناس بين كلمة الوصال وكلمة أخرى ، إلا فلتكن هذه الكلمة أى لفظة ، ولتحو أى صورة ، فإن ذلك لا يهم قابوس ما دام يحقق له غاياته من جناساته .

وأكبر الظن أننا لا نبعد — بعد ذلك — إذا قلنا إن صناعة قابوس كانت تقوم على التصنع وما يطوى فيه من تعقيد وتعمل ، إذ نراه يتعمل فى حركات الكلمة أو فى حروفها ليحدث بعض جناسات بينها وبين غيرها ، ثم هو لا يكتفى بذلك إذ نراه يعدل إلى تصعيب ممراته ليحدث جناساته اللفظية المعقدة ، وكأنما كانت غاياته دائماً هى التصعيب والتعقيد ، وإنه ليركب إليهما طرقاً وَعْرة .

٨

ذيوع التصنع وانتشاره

رأينا زخرف الجناس عند قابوس يتعقد تعقداً شديداً ، ومن قبله رأينا الخوارزمى وبديع الزمان يعقدان فى فنهما ألواناً من التعقيد ، مما دفعنا إلى القول بأن عناصر من التصنع أخذت تتسرب إلى آثار أصحاب مذهب التصنيع ، وإن الإنسان ليخيّل إليه كأن كل شىء فى الفن يريد أن يتعقد ويتصعب ، وليس هذا شيئاً غريباً فى تاريخ الحضارات ولا فى تاريخ الآداب فى الأمم المختلفة ، بل هو الشىء الطبيعى ، إذ نرى الأمم حينما ترقى عقلياً وحضارياً تتحول من الأحوال الطبيعية فى التعبير إلى أحوال جديدة كلها تعقيد وتصعيب فى الأداء والأسلوب . وقد حدث ذلك قديماً عند اليونان فى القرنين الرابع والخامس

للميلاد ؛ إذ نرى شعراء الإسكندرية يحولون نماذجهم إلى مجاميع من التعقيدات ، وكذلك كان الشأن عند العرب فى أواخر القرن الرابع للهجرة ؛ إذ نراهم ينالون قبل هذا التاريخ كل ما كانوا يصبون إليه من ترف عقلى وحضارى ، حتى إذا بَشِموا رأيناهم يتحولون إلى تعقيدات مختلفة فى حياتهم من جهة وفى أدبهم من جهة أخرى ، ولعل من أروع ما يصور ذلك الجانب فى حياتهم ما يروى عن الوزير المهلبى المتوفى عام ٣٥٢ هـ من أنه كان « إذا أراد أكل شىء بملعقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً ، فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام فى الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى ، حتى ينال الكفاية ، لئلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية »[1] . وحقاً إن الوزير المهلبى سبق ظهور مذهب التصنع فى النثر بنحو نصف قرن ، ولكنه على كل حال يرمز إلى هذا الميل الجديد فى الحضارة العربية ، وأنها أخذت تتعقد على نحو تعقيد المهلبى لوسيلة طعامه ، فإذا هو لا يأكل بملعقة واحدة وإنما يأكل بملاعق مختلفة !

وهذا التعقيد فى الحضارة العربية أخذ يتسرب إلى الكتابة الفنية أول الأمر فى شىء من الاستحياء ، فإن الخوارزمى يفزع إلى مبالغاته وتهويلاته كما يفزع إلى الإفراط فى استخدام ألوان البديع ، علّه يشفى غُلّته من غالى التعقيد . ثم يأتى من بعده بديع الزمان فيتقدم خطوات فى هذه الطريق ، فإذا هو يعقد بعض وسائل التصنيع وخاصة وسيلة الجناس ، وإنه ليلجأ إلى وسيلة جديدة غير مفهومة هى اللفظ الغريب ، وهو لا يكتفى بذلك ، بل نراه يعمد إلى ما سماه الخوارزمى شعبذة ، إذ كان يحاول أن يكتب كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل مثل الراء ، أو كتاباً خالياً من الألف واللام أو خالياً من الحروف العواطل أو أول سطوره كلها ميم وآخرها جيم ، إلى غير ذلك من ألاعيب كان يسوقها ليدل على مهارته ، ومع ذلك فقد كان

---

(١) معجم الأدباء ١٢/١٠٣ .

بديع الزمان من أصحاب مذهب التصنيع ، إذ كان يعمد إلى هذه الجوانب فى القلة ، ولم يكن يعممها فى آثاره ، بل هى تظهر من حين إلى حين دالة على أننا أصبحنا داخل مرحلة التحول إلى المذهب الجديد مذهب التصنع والتعقيد .

ونحن لا نترك البديع إلى قابوس حتى نجده يخطو خطوة جديدة نحو مذهب التصنع ، إذ نراه يعمد إلى التعقيد فى كل ما يكتب ، وقد اختار زخرف الجناس ليحدث فيه كل ما يستطيعه من هذا التعقيد وما يطوى فيه من تصعيب ، كان التصعيب شيء يقصد لذاته . وهذا هو الذى دفعنا إلى أن نسلكه فى أصحاب التصنع ، إذ كان يُعنى فى فنه بالتعقيد عناية جعلت هذا الفن أشبه ما يكون بالتمارين الهندسية ، وإنها لتمارين يجد فيها كل ما يريد من متعة بالفن ، فالفن عنده ليس إلا التصعيب والتعقيد . وقد أخذ هذا الذوق ينتشر فى الفن منذ قابوس ورسائله ، بل نحن نغلو إذا نسبنا إلى قابوس ابتكاره ، فقد كان شعوراً عاماً فى الحضارة العربية نفسها والحياة الفنية معها ، وآية ذلك أننا لا نكاد نعثر على مجموعة من رسائل كاتب فى هذا العصر حتى نجد بها شيات من هذا التصنع ، وقد استمر ذلك دأب الكتاب حتى نفذ من بينهم بديع الزمان إلى كثير من سمات المذهب ، ثم جاء قابوس فأضاف سمات أخرى كما أضاف غيرهما من الكتاب بعض شارات وشيات . و من يرجع إلى اليتيمة يجد صناعة الألغاز تدخل فى النثر الكتابى[1] ، وهى ضرب من ضروب التعقيد ؛ كما يجد أداة الجناس التى أخذت تتعقد تخصّص لها بعض الكتب تتحدث عن أنواعها وأجناسها[2]. وأيضاً فإنهم كانوا يكثرون من ترصيع رسائلهم بالشعر والأمثال والغريب ؛ وكل ذلك كان دليلا على وشك جمود الحياة الفنية فى النثر العربى وأنه أصبح لا مفر من أن يصل إلى حال غريبة من التعقيد .

ونحن لا نترك القرن الرابع قرن بديع الزمان وقابوس وأضرابهما إلى القرن الخامس حتى نجد هذا المذهب يعم فى جميع كتابات الأدباء ، فقد أصبح

---

(١) اليتيمة ٤/٣٥٣ .

(٢) اليتيمة ٤/٣٩٦ .

هو البدع الجديد الذى يسعى إليه الكتاب كى يُطْرفوا قراءهم بما يستحدثون من عُقَد ، وقد بدأ هذا السعى أبو العلاء المعرى بدءاً عنيفاً فى آثاره ، إذ كان يفهم الفن على أنه عقد خالصة ، ثم جاء من بعده الحريرى والحَصْكَفى ، فأضافا إلى ورق اللعب فى قصة هذه العقد أوراقاً ، وأدخلا فى أشكالها الهندسية أشكالا ، وسنفسر ذلك فى الفصل التالى تفسيراً دقيقاً .